الاستلاب المنهجي وتعالق الأنساق في النقد العربي المعاصر.

د.أسماء حمداوي.

جامعة يحيى فارس–المدية–الجزائر.

تاريخ الإرسال :2021-05-15 تاريخ القبول :2021-12-17 تاريخ النشر :25–12–2021

ملخص: تعنى هذه الورقة البحثية برصد الحالة الاستلابية وصراع الأنساق المتعالقة في النقد العربي المعاصر من منظور عبد الله ابراهيم، الذي شغل _في معظم كتاباته في النقد وفي السردية على حد سواء _ بالفكرة التنويرية التي تحطم هالة الموروث الاستعماري وتشككك في الخطابات التأصيلية المتمحورة في المركزية الغربية، وذلك من خلال رصد الوعي الإشكالي بثنائية الرؤية والمنهج من جهة وبالمصطلح النقدي من جهة أخرى، وكذلك من خلال تقديم"محمد مندور" كنموذج استيلابي في النقد العربي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: صراع الأنساق؛ المركزية الغربية؛ المصطلح؛ النقد المعاصر؛ الاستلاب الثقافي.

Abstract:

The major purpose of this research study concerned to shed light on Arab critics and approaches in its relationships with the colonialist discourse .this paper expresses itself through a variety of interrelated point First, the relationship between vision, approach and critical term Secondly, to talk about an Arab model based on Western ideas.

Keywords; Arab critics; colonialist discourse; critical term.

مقدمة

يمثل الوعي النقديّ بالإشكاليّة المنهجيّة للخطابات النقديّة في علاقتها مع الخطابات الأدبيّة، والاحتفاء بالخصوصيّة العربيّة ملمحا بارزا يسم مجموعة من القراءات النّقديّة ذات الطّابع الغيور النّوعويّ، ويجعلها هويّة مابعد حداثيّة تواشج عددا من النّقاد وجملة من المرجعيات الفكريّة التّي تمتح جرأتها الفكريّة من الإشكالات المنهجيّة التي يتخبط فيها النّقد العربي من جهة، ومن القراءات العميقة للنقد العربي القديم من جهة أخرى. وقد يكون كتاب" النّقافة العربيّة والمرجعيات المستعارة" واحدا من النصوص النّقدية التي اشتغلت على إشكالية الهوية في النقد العربيّ –على غرار جهود "عبد العزيز حمودة" في ثلاثيته "المرايا المحدّبة" و"المرايا المقعرة" و"الخروج من التيه"–، وأبانت عن الهوة الموجودة بين النّصّ والمنهج، والتي يمكن للنقد أن يتفادها إذا ما أعاد ترتيب العلاقة بين الأنا (النّص العربيّ) والآخر(المنهج الغربيّ).

يرصد هذا البحث الوعي الإشكاليّ بالمقاربة النقديّة العربية في علاقتها مع النّموذج الغربيّ من منظور"عبد اللّه إبراهيم" وفق ثلاثة أمور هي:

1– الوعي الإشكاليّ بثنائيّة الرؤيّة والمنهج:

إنّ وعيا بالهوة الفاصلة بين النصّ والمنهج هو في حقيقته سليل قراءة حفريّة في المرجعيّات الفكريّة، فمنذ ميلاد فكرة المنهج بشقيّه السّياقي والمُحايث في القرن التّاسع عشر والقرن العشرين في العالم الغربيّ بدأت الجهود العربيّة باستلاب تلك الجهود وتطبيقها على النّصوص العربيّة تطبيقات– أكثرها– تطبيقات حرفيّة تستل الآلية من مرجعيتها ورؤيتها وتخوض بها في غمار نصوص لا علاقة لها بها لا من حيث المرجعيّة ولا الرّؤية، وهذا الذي جعل "عبد الله إبراهيم" يفرد فصلا في كتابه المشار إليه يتحدث فيه عن العلاقة القائمة بين الرؤية بوصفها:" خلاصة الفهم الشامل للفعالية الأدبيّة" (إبراهيم، 2010، ص 58)، والمنهج باعتباره: "سلسلة العمليات المنظمة التي يهتدي بها النّاقد وهو يباشر وصف النصوص الأدبية وتشيطها واستنطاقها" (إبراهيم، 2010، ص 58) والشرط الذي بينهما "شرطا أن يكون المنهج مستخلصا من آفاق تلك الرؤية" (إبراهيم، 2010، ص 58). ولو مررنا على شق من المناهج النّقدية الغربية المعاصرة – الشّق المحايث– وسلطنا الضوء على رؤيتها ومرجعياتها –على سبيل التمثيل– لوجدناها نتيجة لظروف منهجية غربية ولا تمت بصلة للخطابات

العربيّة ففي البدئ كانت الدّراسات اللّغويّة على رأسها لسانيات فرديناند دوسوسير محايثة تبحث في اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها، مستمدّة نهجها من المنهج التجريبي في القرن الثامن عشر الذي آمن فيه الفكر البشري بأن الحقيقة وأية حقيقة يمكن اكتشافها وإدراكها من خلال التجريب، ليعتمد دوسوسير هذه النزعة ويخضع اللغة لحيز آني يمكنّه من القبض والتجريب عليها.

وفي المقابل كانت الشّكلانية الروسية تبحث في أدبية الأدب في محاولة إبعاد الأدب من أية عناصر خارجية عنه خاصة الأيديولوجية كما اتّفق وقال "تزيفتان تودورف" (2007) في مقدمة كتابه "الأدب في خطر" حيث ابتعد هو نفسه عن الدراسات الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية للأدب خوفا من النظام السائد آنذاك (تودوروف، 2007).

ويتفق أن النّقد البنيوي أخذ من كلا السابقين؛ لسانيات دوسوسير والشكلانية الروسية فجعل أدبية الأدب متحققة في الوشائج البنائية والعناصر الجمالية أي من خلال التقنية وعدول اللغة.

ومع تفجير القنبلتين الذريتين بهيروشيما وناكازاكي فقد الإنسان ثقته في العلوم الطّبيعية وتدارك الحقيقة بإيغالها في الذات وكل ذات، فانتشر الوعي القرائي والتأويلي والنقد التفكيكي ومع نهاية الحربين العالميتين وعودة السلام للعالم الغربي قرّر أن يعود النقد بالنّص إلى عناصره الأيديولوجية (حمودة، 1998) كتحقيق لرغبة دفينة، تعيد الاعتبار لسقوط "عزرا باوند" في مسابقة بولنجتون عام 1949 لتأييده "موسوليني" و"هتلر"، ولفتح مواضيع الطابو (المرأة، الجنس، الشذوذ، السّحاق، اللواطية، الاغتصاب...) التي حرمّت عليه من قبيل "كل ممنوع مرغوب" (حمداوي، مقال إلكتروني، ص 2).

وبالمقابل فإنّ فشل النقد الأدبي في مقاربة النصوص الأدبية وتأثير الأفعال الجماهيرية والثقافية، من مثل الأغنية الشبابية والنكتة والإشاعات واللغة الرياضية (الغذامي، 2005) هو الذي حفّز النقد الأيديولوجي الثقافي فجعله ردّ فعل للبنيوية اللسانية والسيمائيات والإستيتيقا والبلاغة ليبني منهجه الجديد على موت النقد الأدبي للبحث في الأنساق الثقافية المضمرة ودراستها في مختلف سياقاتها متأثرا بتفكيكية جاك دريدا والماركسية الجديدة التاريخانية الجديدة، المادّية الثقافية، النقد الكولونيالي والنقد النّسوي (قطوس، 2005)، وعلى هذا يمكن القول بأنّ هذا النقد الجديد (النقد الثقافي) الذي لم يتحقق إلا سنة 1985 في الولايات المتحدة الأمريكية ولم ينطلق إلا بظهور مجلة النّقد الثقافي في جامعة مينيسوتا ولم يتبلور إلا مع فنسنت ليتش وجانيت وولف وآرثر أيزا برغر على مشارف التسعينات من القرن العشرين (حمداوي، مقال إلكتروني)، هو الآخر غربي المنشأ تاريخيا إيديولوجيا وأدبيا.

وبالرّغم من كون المناهج النّقديّة الحداثيّة وما بعدها في العالم الغربيّ سليلة أوضاع وقناعات أيديولوجيّة معيّنة كما وضّحنا باقتضاب فيما سبق، غير أنّ العربيّ ساوقها ومتح منها مخلّفا وراءه زخما معرفيا عربيا إسلاميا قديما، استفادت منه الحضارة الغربيّة نفسها، متنصّلا من هويّته الرّوحيّة.ولعلّ هذا بالذّات ما جعل "عبد الله إبراهيم" يستحضر ثنائيّة الرّؤية والمنهج للتّدليل على الاستعاره المنهجية غير الموفقة في مقاربة النّصوص العربيّة.

2- الوعي الإشكاليّ بالمصطلح النّقديّ:

يجدر قبل الحديث عن الوعي الإشكاليّ بالمصطلح النّقدي من منظور "عبد الله إبراهيم" المرور ولو باقتضاب عند إشكاليّة المصطلح في العالم العربيّ لما لها من دور بالغ الأهميّة في التّجربة النّقديّة، فالمصطلحات كما هو مشاع مفاتيح العلوم ومقاليدها الّتي تمكّن النّاقد من تفكيك شفرات المجتمع النّقدي فتوحّد فعل القراءة بينهم من خلال ما تنطوي عليه من مواضعة، ثمّ إنّ المصطلح النّقدي في العالم العربيّ يشهد فوضى عارمة تتسبّب فيها ولا غرو أزمة الرؤيّة والمنهج من حيث كونهما سليلي النّقد الغربيّ، فعن طريق استعارة المنهج، تستعار المصطلحات أيضا عن طريق الترجمة أو النحت أو التعريب، أو غيرها من آليات نقل المصطلح النّقدي، وإذ تتباين رؤى النّقاد ومرجعياتهم الفكريّة والثّقافيّة، وفي ظلّ غياب وحدات ومراكز بحث توحدّ المصطلح النّقديّ بشكل فعليّ، تختلف طرائق النقّل من متعصّب للماضويّة العربيّة همّه التّعريب أو محايد يترجم، أو مساوق للثّقافة الغربيّة ينحت ويشتقّ.

ومن مظاهر هذا الإشكال الفوضى المصطلحيّة سواء على صعيد الدّال أو المدلول، أو الدّال والمدلول معا.

وفي سياق الحديث عن الدوال والمدلولات يشير عبد الله إبراهيم إلى ما يسميه التخريب الدلالي والذي يحدث جرّاء مراحل الغموض والانقطاع والعدول، التي تتصف بها عادة أعمار المفاهيم وأيضا من مؤثرات أخرى تسهم جميعها في تغيير الأطر الدلالية العامة لمفهوم المصطلح، مثل: الضمور الدلالي، والتضخم الدلالي، أو الانحراف الدلالي وقد يكون من مسببات هذا التخريب الدلالي أيضا اتساع حقل المعرفة و/ أو تشابكه مع حقول معرفية مجاورة معرضا المفهوم الأصل للمصطلح إلى هزات عنيفة وملحقا التخريب في بنية المصطلح الشكليّة والدلالية (إبراهيم، 2010).

وعليه حسب عبد الله إبراهيم دائما فـ " إن انتماء المصطلح إلى حقل معرفي محدّد، يرتّب عليه، أن ينتظم في علاقة جدل خصبة، كونه منتجا للمعرفة من جهة، وخاضعا لأطرها العامة الموجهة، من جهة أخرى، وكلّ هذا يكشف الأهمية المعرفية، للوقوف على ممارسات المصطلح بغية ضبط شكله ومفهومه" (إبراهيم، 2010، 129).

ولأن المعرفة تنتج أجهزة اصطلاحية تستدعيها الحاجة المباشرة وغير المباشرة في عملية التكوين المعرفي، على صعيدي الممارسة وكذا الإجراءات النظرية فيترتب عن ذلك نوع من المواضعة حول أشكال الاصطلاحات ومفاهيمها بما يتفق مع البنية الثقافية في ظل شروط حقل المعرفة وخاضعا لحاجات التلقي والاتصال بالثقافات الأخرى، إذ يدخل الآخر حسب عبد الله إبراهيم دائما بوصفه مؤثرا في إضفاء دلالات أخرى على المصطلح، أو مخلخلا الدلالة القارة له ففي حالة الثقافة العربية الحديثة مثلا تهيمن الثقافة الغربية على آلية عمل المصطلحات وتزيح كثيرا من دلالاتها وعما كانت قد تشكلت عليه في الأصل(إبراهيم، 2010).

ويربط عبد الله إبراهيم بين نهوض الفكر واستقامته وبين فلاح الاصطلاحات ووضوح دلالتها في توجيه إنتاج المعرفة الخصبة والجديدة إذ أن ثقافة أية أمة من الأمم تتقوض وتتلاشى حسبه لأسباب كثيرة؛ ومنها اضطراب دلالة المصطلح، وتعارض المفاهيم، وشيوع الغموض والقلق في التراسل العلمي بين مصادر المعرفة وجهات التلقي، وهو الأمر الذي يعرض تراكم المعرفة ذاته إلى كثير من الصعاب كعدم استقرار المفاهيم والاضطراب في الوصف والتحليل والاستنباط واستخراج النتائج التي يهدف إليها كل بحث ومن ثم تصاب الثقافة بنوع من الجفاف لأنها تكون حينها مفتقرة إلى الحوار والجدل والمساءلة الجادة بسبب اختلال نظام التراسل الطبيعي بين الأفراد فضلا عن تعارض المفاهيم واشتباكها ودورانها في مضمار مغلق لا يفضي إلى نتيجة وهذا جميعه يدلل على مكمن خطورة وأهمية المصطلح ودوره في انحسار المعرفة أو انطلاقها وفي بعثها وبزوغها أو أفولها (إبراهيم، 2010).

وإذا أسقطنا الخطورة الكامنة في المصطلح التي يعرض لها عبد الله إبراهيم على الواقع والحال العربي فإننا نجد أنفسنا بداهة أمام جملة من الإشكالات لعل أهمها اثنتان هما: إشكالية الأصالة وإشكالية المعاصرة.

فأما إشكالية الأصالة فتكمن في محاولة المواكبة العشوائية التي تحاولها الثقافة العربية في إضفاء دلالات حديثة على منتجات من الماضي فتعمل على انتزاع منتج من حقله المعرفي وتستعمله في حقل معرفي آخر دون مراعاة خصائصه التي اكتسبها ضمن حقله الأصل وهو ما يجعل المصطلح يتغذّى من مفاهيم غريبة عن السياقات الثقافية له (إبراهيم، 2010).

وأما إشكالية المعاصرة فتتجلى في العمل على نقل المصطلح من ثقافة أجنبية محمّلة بالسياقات والملابسات المعرفية لبيئتها إلى الثقافة العربية دون مراعاة للخصوصيات الثقافية لكلا بيئتي الإرسال والاستقبال (إبراهيم، 2010).

وقد أدت إشكاليتي الأصالة والمعاصرة إلى اضطراب كبير قاد إلى غموض لا يقبل اللبس في دلالة المصطلح وسوء في استعماله وهو ما عرّض فاعلية الإرسال والتّلقي إلى خلل بيّن وخضعت في كثير من الأحيان لكثير من الجهل والتنطّع (إبراهيم، 2010).

3- محمد مندور في ميزان عبد الله إبراهيم (محاولة في قراءة نماذج الاستلاب العربية):

"محمد مندور" في ميزان "عبد الله إبراهيم" يُعتبر انحدارا في رؤى وقضايا الأدب وارتهانها للمركزية الغربية حتّى عمّا كان عليه "طه حسين" ويدلل "عبد الله إبراهيم" على ذلك باعتراف "مندور" نفسه ضمن طيّات تقديم كتابه "في الميزان الجديد" عند تأكيده على أنّه مدين لأستاذه "طه حسين" بأمرين هما "الشجاعة في إبداء الرأي" و"الإيمان بالثّقافة الغربية" (إبراهيم، 2010) ويرى عبد الله إبراهيم أنّ مندور كرّس حياته لإعادة إنتاج الأدب العربي في ضوء معطيات الثقافة الغربية والثقافة الفرنسية منها على وجه الخصوص حيث يقول مندور: " ولقد كنت أؤمن بأنّ المنهج الفرنسي في معالجة الأدب هو أدق المناهج وأفعلها في النّفس" (إبراهيم، 2004، ص 5) كما يرى عبد الله إبراهيم بأن مندور في تجريبه للعدّة المنهجية الغربية قد أفضى به إلى اختزال الأعمال التي اشتغل عليها، إلى مجرّد سجالات أيديولوجية فقد فرضت عليه المناهج الغربية طبقا لمقتضيات إجراءاتها تلك الطبيعة الاختزالية في النظر والتحليل (إبراهيم، 2010، ص 58)، فعلى الرغم من الاختلاف بين الأدبين العربي والغربي، وما يقتضيه السياق التّاريخي من خصائص مميّزة لكل منهما نجد مندور يلحّ في اعتماده على الثقافة الأوربية حتى صار به الأمر إلى محاذير معرفية خطيرة تمثّلت في ولوجه بلا موارية مناطق التقليد والاحتذاء والأخذ الذي لا يضع في اعتباره اختلاف السياقات التّاريخيّة والثقافية فكانت رؤية المركزية الغربية التي خيّلت إليه وإلى الكثيرين غيره بأنها رؤية إنسانية كونية كلية شاملة هي المحرك الأساس لجهوده التي بذلها ولأجل جميع ذلك راح مندور يبشّر بتلك الرؤى والمناهج الغربية ويربط عجلة التحديث والتّقدم بها (إبراهيم، 2010).

وفي الأخير يمكن القول بأن عبد الله إبراهيم بغيرته على النقد العربي، خاض تجربة نقدية كسر فيها جليد المنتوج الغربي وأباح للمفكر العربي أن يفكر بشيء من الارتياب في كثير من مسلماته النقدية، وأن يحاول تفكيك المستورد فيحوره ويعربه كما يخدم خطابات العربيّة لا كما يراد له في سياقات غريبة عنا.

- المراجع:

- إبراهيم عبد الله، (2010)، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، د ط، الرباط/ الجزائر/ بيروت، دار اليمان، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط/ الجزائر/ بيروت، 2010.
- حمداوي جميل، النّقد الثقافي بين المطرقة والسّندان، مقال إلكتروني https://www.diwanalarab.com/النقد-الثقافي .
- حمّودة عبد العزيز، (1998)، المرايا المحدّبة من البنيوية إلى التفّكيك، د ط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- مندور محمّد، (2004)، في الميزان الجديد، د ط، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- قطّوس بسّام، (2005)، المدخل إلى مناهج النّقد المعاصر، د ط، القاهرة، دار الوفاء لدنيا النّشر، القاهرة.
- تدوروف تزيفيتان، (2007) الأدب في خطر، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، د ط. الربّاط، دار طوبقال.
- الغذّامي عبد الله محمد، (2005)، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط 3، بيروت، المركز الثقافي العربي.